قاهر الزمن

لنهاد شريف

١

أسعدتنى هذه الرواية سعادةً عظيمةً لأكثر من سبب . وتلك هى إحدى مهام الفن الجوهرية . أن يهبك الإحساس بالمتعة ، أن يشدّك إليه ويبهرك فى كل سطر تقرؤه ، حتى إذا عرفت أن كاتبها شاب وأنها أوّل رواية له لم تملك أن تمنع نفسك من التساؤل إعجابًا : أحقًّا هذه السطور من تأليفه !.

ميزة الرواية الأولى أنها عودة إلى البساطة والوضوح فى الأسلوب ، ولا شك أن لموضوعها علاقة وثيقة بذلك . فهى ليست جولة فى سراديب النفس يقدمها لنا صاحبها وهو نصف واع كما يحدث فى معظم مايقدَّم لنا من أدب ، بل هى حلم علمى خرج به صاحبه من نطاق ذاته إلى نطاق وطنه بل إلى العالم كله ، وتلك ميزة تسجَّل للمؤلف الشاب : أن يستطيع الإفلات من دفع التيار السائد الطاغى ليكتشف بنفسه ولنفسه أرضًا نادرًا ما ارتادها غيره فى أدبنا المحلى .

ولئن كان أدبنا العربى المعاصر قد عرف رواية الخيال العلمىّ ، فإن ما عرفه منها يعتبر محاولات متواضعة للغاية إذا قيست بهذا الجهد الروائى الذى بين أيدينا . ومؤلف روايتنا الشاب يعلن عن مذهبه الأدبى حين يصرح على لسان راويته الصحفى قائلاً : إن الأدب المصرى عريق . وأنا أعشقه وأعشق كتّابه المرهفى الإحساس والوجدان ، لكنه فى نظرى للأسف أدب واقعى تقليدى لا يريد أن يترك يومنا الذى نعيشه ولا نحيد عنه قيد أنملة ولو للحظة .. ولقد مللت يومى .. مللت واقع حياتى .. وإنما أنشد شيئًا مغايرًا مجددًا .. لذلك فأنا أهجر أدب الواقع ، أدب الحاضر الملموس .. إلى أدب المستقبل الذى سيكون .. أذهب فى خطى متحررة محاولاً أن أرسم صورته على أساس من العلوم والمعرفة والمنطق الذى يمكن أن يتحقق يومًا من

الأيام .. ذلك الأدب الذى يُسيِّره نهج علمى جرىء ينقلنى من حيانى المألوفة إلى آفاق مبتكرة من الرؤى والتصورات والأحاسيس .

ثم يشير إلى مراجعه قائلاً : وأقرأ لجول فيرن وويلز وكونان دويل وبيير بنوا وهكسلى ورايدرد هاجارد وغيرهم وأعيش معهم فى عوالمهم الغامضة فأرحل إلى عالم مفقود ، وأشهد حربًا بين الكواكب ، وأعثر على قارة الأطلنطيد المفقودة ، ثم أهبط إلى باطن الكرة الأرضية وأتذوق طعام الآلهة ، وأبحث عن الرجل الخفى ، وأطلّ على عالم هكسلى الطريف ، وأزن أرواح الموتى ، وأفر من دنيا العميان إلى عالم الغد المنتظر .. أفعل الكثير بين أعماق الأرض وأقاصى طبقات السماء .. وحتى شخصية فرانكنشتين كانت تشدنى إليها على بشاعتها وإغراقها فى الخيال .. وهكذا كبرت أمنيتى الوحيدة .. وأصبحت أسير تحقيقها .. أسير أن أكتب أدبًا علميًّا يفتح طاقة على مستقبل حياتنا نحن البشر .

ويقول المؤلف إن ما دفعه إلى هذا الاتجاه هو شعوره — ونحن نأخذ بالأساليب العصرية فى واقعنا المعاصر — إن الاتجاه نحو القصة العصرية والأدب العصرى مرحلة ضرورية لتطوير العلم والنهوض به والأخذ بأساليبه لأن معظم ما يتصوره الخيال يحققه البحث العلمى ، يضاف إلى ذلك أن ما يُكتب لدينا من أدب علمى خاصة فى القصة والرواية قليل إن لم يكن نادرًا (آخر ساعة ، ٢٧ يناير سنة ١٩٧١) .

معنى هذا أن الأدب كما أنه يتأثر بالعلم فإن العلم بدوره يتأثر بالأدب ، والبشرية تحلم دائمًا ثم تعمل على تحقيق أحلامها . وقد كان الأدب دائمًا إحدى الوسائل للتعبير عن أحلام البشرية . فإذا عرفنا أن نهاد شريف يكتب قصة الخيال العلمى القصيرة الناجحة إلى جانب كتابته رواية الخيال العلمى أدركنا إلى أى حدٍّ يستحوذ عليه هذا الاتجاه العلمى الأدبى ، وإلى أىّ حدٍّ يبشرنا إنتاجه بالمزيد والأفضل .

٢

وللرواية خطّان : علمى وبوليسى ، كلٌّ منهما يخدم الآخر . فالخط العلمى خدم المضمون فجعله أكثر من مجرد رواية للتسلية ، والخط البوليسى خدم الشكل فخلق عنصر تشويق ناجح . والخطان لا ينفصلان إلاّ فى عقل الناقد لأنهما يكونان كلاًّ واحدًا . فالطبيب يقوم بتجاربه العلمية على الحيوان أوّلاً فإذا نجحت فلابدّ أن ينقلها إلى عالم الإنسان ، وهذه مغامرة

خطيرة قد تودى بحياة البعض كما أودت تجاربه السابقة بعدد من الحيوانات . لهذا كان لابدّ من التخفّى عن أعين الشرطة حتى لا يكتشفوا ضحاياه فيمنعوه عن مواصلة أبحاثه إن لم يقدموه أيضًا للمحاكمة ويعاقبوه . من هنا كان السرّ فى إقامة معمل الأبحاث فى جوف الجبل وراء مرصد حلوان بعيدًا عن العمران والعيون ، ومن هنا كان سر الغموض الذى يكتنف الرواية فى بدايتها فتجذب القارئ إليها .

وهنا تنشأ أمام المؤلف قضيتان : أولاهما قضية فى الشكل هى قضية الغموض وقد أعلن رأيه فى هذه القضية فى حديثه السابق حين قال إنه يعتبر الغموض مثل التوابل ، قليل منه يحسن نكهة الطعام وهو فاتح للشهية ، لكن الإكثار منه ضار بالصحة . كذلك فإن الغموض فى الأدب مستحب لشدّ انتباه القارئ وتشويقه ، لكن إذا اتسم العمل الأدبى كله بالغموض فلا يستطيع أن يؤدّى الغرض منه . ونستطيع أن نقول إن هذا هو ما طبقه المؤلف تمامًا فى روايته فقد وقف هذا الموقف المتوازن من الغموض ونجح فيه .

والقضية الأخرى تتصل بالموضوع وهى تثار فى ثنايا الرواية . فهل للطبيب العالم مهما بلغت أستاذيته أن يستخدم جسد الإنسان حقلاً لتجاربه دون أن يحفل بما قد تسببه التجارب من عذاب . . هل يباح ارتكاب جريمة باسم العلم لمجرد القول بأنها تُرتكب فى سبيل الإنسان ، هل يجوز تعذيب إنسان بغرض إطالة حياة إنسان آخر حتى لو كان الذى يتعذب مريضًا مقضيا عليه أصلاً بالموت . ويتذكر الراوية منطق النازية وفظائعها خلال الحرب العالمية الثانية وما قرأه عن حرق لآلاف الجثث فى الأفران بعد إجراء التجارب العلمية على أصحابها . ويأتينا الجواب على لسان الدكتور حليم صبرون بطل الرواية وصاحب هذه التجارب حين يشبّه أبحاثه بسفينة صغيرة تمخر عباب يمٍّ قاسٍ متلاطم الأمواج والأنواء . ولكى تصل السفينة إلى برّ الأمان وسط ما يحيطها من مخاطر فلابدّ لملاحيها من تضحيات كبيرة يقدمونها سواء برضائهم أو صاغرين ، كأن يضحى بعض منهم بأرواحهم خلال الصراع من أجل هدف الوصول . . من أجل النجاة للأغلبية .

وحين يتحدث الراوى عن ذلك الدافع الخفى الذى يدعو الدكتور حليم إلى إظهار سطوة فكره وجبروت إمكاناته العقلية لبناء مجتمعه مع تشبيه أبحاثه بالسفينة الصغيرة ، لا نملك إلا أن نتذكر على الفور الأديب اليونانى كازندازاكى فى مسرحيته « كولومبوس » حين يتحدث عن السر الذى يدفع بطله إلى ركوب المخاطر وإلى ارتكاب الكذب والسرقة بل والقتل على ظهر

سفينته المتجهة لاكتشاف الهند وذلك حتى يظلّ طاهرًا نقيًّا مثل النار ، لأن النار مهما ألقى إليها من أقذار فإنها تحيلها إلى نار مثلها ، وشجرة الورد تقول أيها الروث . . أيها الوحل . . سأجعل منكما وردة .

وهكذا يواصل الدكتور حليم صبرون فلسفته قائلاً : ألم تسمع عن طائر البطريق الذى يصنع بعض أفراده جدارًا من أجسامهم فى مواجهة العاصفة الثلجية ويظل الجدار صامدًا أمام الريح الصرصر والصقيع المتراكم ساعات وساعات حتى يهلك أصحابه من أجل الإبقاء على بقية القطيع ؟

إذًا فالذين يموتون فى سبيل التقدم العلمى للإنسان أشبه بالذين يحمون ظهور إخوانهم فى المعركة أو بالطلائع الذين يموتون فى سبيل حماية الزاحفين خلفهم .

٣

فبطل الرواية الدكتور حليم صبرون إذن من هؤلاء الأبطال الذين يقعون ضحية تطلعاتهم الطموحة . إنه بطل معذّب يقف فى وجه القدر ويتمرد على مصيرنا جميعًا وهو الموت . إن أبحاثه حلقة من هذه السلسلة الطويلة من محاولات الإنسان للتغلب على مشكلة الموت ، تبدأ بتلك المحاولة الأكثر تواضعًا والأكثر غريزية عن طريق الذرية ، ثم فكرة الحياة بعد الموت عن طريق التناسخ أو فى العالم الآخر أو بالاندماج فى الروح الكلية (النرفانا) ، ثم محاولة خلود الفرد بالفن أو بالفعل (كما هو شأن السياسى مثلاً) ، وأخيرًا محاولات العلم التى تتواضع اليوم فتهدف إلى إطالة عمر الإنسان . . وهو يعيش اليوم أقصر من عمره الحقيق ، لما يسببه له عقله من قلق وتوتر لا يعرفها الحيوان . . فالملاحظ أن الحيوان يعيش عادةً اثنى عشر ضعف العمر الذى يصل فيه إلى مرحلة النضج الجنسى . ولما كان الإنسان عادة يصل إلى هذه المرحلة فى سن تقع بين الثانية عشرة والرابعة عشرة فمن المقرر أن يكون متوسط عمره ما بين المائة والعشرين والمائة والأربعين ، غير أنه اليوم لا يكاد يتجاوز الثمانين .

ومحاولة الدكتور حليم صبرون هى إحدى تلك الرؤى العلمية التى تحلم بإطالة عمر الإنسان ، وهى فى الوقت نفسه حلم بمصر العلمية . مصر التى كانت تتزعم العالم حضاريًّا فى يوم ما . حلم بأن تعوّض ما فاتها وتلحق بركب الحضارة المعاصرة بحيث تعود مركزًا لإشعاع حضارى جديد .

يقول نهاد شريف فى حماس فى حديثه السابق : أنا شديد الحساسية إزاء كل ما هو مصرى . فمصر أم الدنيا ، لابدّ أن تكون هكذا ، فهذا قدرها ومصيرها منذ بدء الخليقة ، ومن الالتزام بواقع وطنى ودوره الحضارى وإيمانى بطاقات شعبى العظيم أكتب وأعبّر .

وهذا بُعْد جديد من أبعاد الرؤيا .

وإذا كان أهل الكهف قد ناموا فى الماضى ليستيقظوا فى الحاضر ، فإن عملاء الدكتور صبرون ينامون فى الحاضر ليستيقظوا فى المستقبل . وإذا كان أهل الكهف قد ناموا هربًا بدينهم من اضطهاد قد يقع عليهم ليستيقظوا بعد أن زالت أسباب الاضطهاد فلا ينالهم أذى ، فإن أهل القلعة النائمين عند الدكتور صبرون ينامون انتظارًا لاكتشاف علاج لأمراضهم المستعصية أو جراحاتهم الخطرة أو للاستفادة بذكائهم وقدراتهم مستقبلاً . وبرغم أن الزمن قد توقف بالنسبة لأجسادهم فهى لا تنمو ولا تتحلل بسبب تبريدها فى درجة حرارة معينة ، إلاّ أنه لم يتوقف بالنسبة لعقولهم الباطنة التى يمكن مخاطبتها وعلاج أمراضها النفسية والعقلية وتلقينها شتى المعلومات . .

ذلك هو حلم كاتبنا المبدع قدمه لنا خلال ظمأ بطله الأبدىّ إلى الخلود . وهو يلقى علينا درسًا عن طريق هذا البطل الذى أعرض عن مباهج الحياة الحديثة ومغرياتها فى عصر يطمع فيه الأكثرون فى الثروة والجاه ومتع المدنية !

ولقد حرص نهاد شريف على أن يحتفظ لأسلوبه بالشاعرية بالرغم من موضوع روايته العلمى ، بل كانت لهذا الأسلوب وظيفته فى إضفاء جو الحلم واللمسة التنبؤية على الموضوع العلمى ، فهو يحدثنا عن المبانى الزجاجية الشفافة المستديرة ، والسحابة البنفسجية الواقية من عواصف الجوّ وتقلباته والأنوار الفوسفورية التى تلف كل شارع وكل ميدان وبناء وقد أضاءت حانيةً كالطيف الرقيق الهفهاف فكأنها خطوط أسطورية فى رشاقتها وانسيابها وجمال ألوانها . . كما لم ينس أن تكون للعلاقات العاطفية دورها فى وسط الجو العلمى البوليسى فتعاونت مع الأسلوب فى خلق توازن مع موضوع الرواية الأساسى .

ولا شك أن نهاد شريف قد قرأ كثيرًا وصبر كثيرًا قبل أن يُقْدِم على كتابة هذا العمل الروائى الموفق . ونتيجة لهذا فهو يقنعنا فنيًّا فى كلّ صفحة من صفحات روايته بخياله العلمى ، ليس هناك تسرع ولا بطء وتكرار يصيبنا بالملل ، لهذا نجح بأن جعل من المغامرة العلمية مغامرتنا . . ومن حلم بطله حلمنا جميعًا .